الفصل الرابع

الدين والتربية

عمدت قبل أن أدفع كتاب "العلم والتربية" للمطبعة إلى نشر بعض فصوله في جريدة الأهرام الغرّاء، أري أي وقع يكون لهذا الموضوع الخطير في البلاد، وأقف علي أفكار الناس، وآرائهم فيه.

والحمد لله علي ما أولانيه من رضا الخاصة، والعامة عن شروعي في وضع هذا الكتاب، ومسرتهم من إقدامي علي طرق هذا الباب، مما دل دلالة واضحة علي أن الشرقيين مدركون ما هم فيه من التقصير، عارفون بما لحقهم من النقص. ولا يخفي ما ينبهم عن مثل هذا الإدراك من الفائدة والنفع.

علي أن سروري برضاهم جاء مشوبًا بكدر وغم، بل بحزن وألم مما أظهرته الرسائل التي نشرتها في هذا الموضوع من فساد العقيدة الدينية عند بعض شباننا. وعندي أن ضعف هذه العقيدة ناجم عن تأثير لتقاليد الأجنبية، مما نستبدل به غالبًا التربية العربية الشرقية التي تنطبق علي حاجتنا انطباقًا تامًا، ولست أريد بهذا القول أنه ينبغي لنا أن ننبذ كل خلق من أخلاق الأجانب، ونطرح ظهريًا كل آدابهم وعاداتهم بدعوي أنها أجنبية عنا، منافية لتقاليدنا وآدابنا. كلا وإنما أريد بذلك القول أننا نحن الشرقيين قد طبعنا علي ما يظهر علي حب التقليد، ثم جاء عصر التربية الأوروبية في بلادنا فتهافتنا عليها، وغالينا في تطلبها حتى أصبحنا ننظر شزرًا إلى كل عادة شرقية مهما كانت حميدة، ونعتنق كل مذهب أوروبي ولو كان فاسدًا.

ولما كانت الأخلاق القبيحة والعادات السيئة أسهل اقتباسًا من الطبائع الصالحة والسيرة المحمودة؛ لأن في الأمر الأول إطلاقًا لعنان الرذيلة، وفي الثاني قسرًا للهوي، وتقيدًا في أسر الفضيلة، رأينا كل مشكور من عادات الإفرنج مقصي مغضوبًا عليه، وكل منكر من أخلاقهم مقربًا مترضى عنه.

وعلي هذا القياس تهافتنا علي تقليدهم، وإتباع خطتهم في إنكار بعض العقائد الدينية التي تقيد عقل الإنسان بقيد يمنعه من الأنطلاق في طريق العلوم السامية، والجري في مضمار الحضارة المصرية، وبالتالي أنها توقِف تيار التقدم، وتحول دون مجرى النجاح.

ولو أصبنا لما تركنا مجالًا للسيء المنكر من عادات الإفرنج وتقاليدهم أن يشوب صفاء تربيتنا بكدرته، ويستولي علي عقول أبنائنا بفساده.

بل كنا دفعنا عن البلاد مضار فساد العقيدة الدينية، مما يؤدي طبعا إلى فساد التربية، ويحمل علي استصغار زلات وجرائم لا يمنع من استصغارها شرف النفس والأنفة الذاتية كما يدعي بعضهم.

ولقد حداني إلى وضع هذا الفصل في هذا الموضع من كتاب العلم والتربة رسالة وردتني علي أثر نشر الفصول التي سبقت لي الإشارة إليها في جريدة الأهرام. وقد جاءتني تلك الرسالة من أحد شبان القاهرة ممن تجمع بينهم وبيني صلة الصداقة والأدب، وهي:

"أيها الصديق العزيز، عليك سلام الله، وإليك شوق هذا الأخ الذي حرمته الأيام... إلخ. وبعد، فقد قرأت لك في صدر الأهرام ثلاثة فصول من كتاب "العلم والتربية، ففرحت بإقدامك علي وضع هذا الكتاب لشدة حاجة البلاد إليه، ولما اعمله فيك من الخبرة في هذا الموضوع."

ومع ذلك فلست بكاتم عنك ما حاق بي من الاستغراب؛ إذ رأيت كلمة "الدين" تتردد بكثرة بين تلك السطور. فإنك لما تكلمت في الفصل الأول عن نهضة الشعوب قلت: التربية السامية والعلم الصحيح و"قواعد الدين" الحقيقة، ولما قمت تنادي بوجوب إنشاء المدارس الأهلية لتعليم الشعب عدت إلى ذكر "قواعد الدين"، ثم أردفت هذا الفصل الثاني بفصل ثالث في تعليم المرأة، وأردفت ذلك القول بقول مثله، فأي دخل للدين مع العلم وأيّة رابطة بين الدين والتربية، وغير خافٍ عن فطنتك وذكائك أن العلم لا علاقة له بالدين، بل أن أحدهما ينفي الآخر. وإن تشأ شاهدا فانظر إلى فرنسا بلاد العلم والتربية، ووطن الحضارة والمدنية، فإن مدارسها ممنوع ذكر الدين فيها، حتى أن بعض المدارس قد أبدلت اسم الجلالة بلفظة الوطن. ولم يمنع ذلك هذا الشعب العظيم من أن يسبق كل شعب جاراه في حلبة العلم ومضمار المدينة. فليس إذًا من الواجب عليك أنت الذي نعدك في مقدمة الكُتّاب الشرقيين القائمين بالدعوة إلى العلم أن تُقرن العلم بالدين في كل كتابة لك ترسلها دعوة إلى النظر في مستقبل البلاد لئلا يصدق فينا قول أوروبا "أننا لا نخرج من دائرة التعصب، ولا نفلت من قيد التقاليد المذهبية كالسمك إذا أُخرج من الماء أدركته الوفاة" وأنني لأرجو أن يقع هذا الكلام لديك في موقع الرضا والاستحسان؛ لأنني لست بخاف عليك أن هذا الرأي ليس رأيًا شخصيًا لي خاصًا بي، بل هو رأي كثيرين من أصدقائنا النبهاء الذين سرّهم ما سرني في كتابتك، وساءهم ما ساءني منها، فانظر في الأمر ورأيك الموفق إن شاء الله"

ورَدتني تلك الرسالة، وكان خبر مقتل الإمبراطورة إليصابات إمبراطورة النمسا وملكة المجر، قد ملأ كل صقع وقطر، وللناس في الفوضى وأسبابها كل رأي وحديث، فكتبت في الحال إلى صديقي أقول:

"لست أدري أأشكرك علي ظنك بي لكفاءة الإقدام علي وضع كتاب "العلم والتربية" أم ألومك علي نصحك لي بعدم ذكر الدين فيما يجب أن يشب عليه أبناؤنا؟. أما ثناؤك فمردود إليك لأنك تنظر إلى كل ما أكتب بعين الصديق. وأما نصحك فمستغرب عندي؛ لأنك في مقدمة الناظرين إلى شقاء الدنيا منذ ضربت هذه الحضارة الجديدة أطنابها، ونشرت هذه الحرية الحديثة لواءها. وقد بحثت عن السبب الذي من أجله نري الشعوب تشقى، والفساد يعم، والفوضى تنتشر–فالابن يسرق أباه، والأب يقتل ابنه، والأم تبيع ابنتها، والشقي اللئيم يقتل ملكته– فلم أجد لكل ذلك سببًا غير وهن العقيدة الدينية وضعفها، بل زوالها عند بعض الشعوب والأمم، واستبدال اسم الله تعالى بلفظة الوطن. وعندي أنك مخطئ في قولك أن بين العلم والدين مناقضة، فإن الدين لا ينفي العلم، ولا العلم يناقض الدين، والتربية لا تكون تامة نافعة إلا بالعلم والدين الحقيقيين الصحيحين.

ومع ذلك فإنني لم أقل إلا التربية، ولم أتعرض للعلم؛ لأن البحث في مطابقة العلم للدين ليس من موضوع هذا الكتاب الذي أقصد فيه إلى الدلالة علي أتم طرق التربية، وأحسن وسائلها للوصول إلى غايتها السامية، وهي سعادة الشعب، ورفاهية عيشه، وتقدمه، وعلو مكانته.

والتربية الدينية الصحيحة واجبة فيما أراه قبل كل تربية لأسباب خطيرة جمة أعد منها ولا أعددها. فإن الإنسان وجد ليكون سعيدًا ويساعد قريبة علي نيل السعادة والراحة. وأريد بالقريب كل إنسان؛ لأن الناس في عرفي واعتقادي عائلة واحدة، وأبناء أسرة واحدة مهما اختلفت مذاهبهم وألوانهم، والسعادة كما لا يجهل أحد لا تنال إلا بوقوف الإنسان عند حد ما له وما عليه، والدين أفضل ما يعلم المرء ما يجب عليه وما يحق له، وأننا قد وجدنا القاعدة السامية

القائلة: "افعل بالناس ما تريد أن يفعله الناس بك" بين التعاليم الدينية، فحقق لنا أن نطالب الوالدين والمربين بأن يصرفوا جل عنايتهم إلى غرس المبادئ الدينية الصحيحة في صدور أبنائنا؛ ليشبوا علي الاحترام، كما يجب احترامه واجتناب ما يجب الابتعاد عنه، وأن الاعتصام بحبل الدين هو الذي يدل المرء علي فروضه نحو أبيه، وأمه، وأخيه، وشقيقته، ويعرفه ما يطلب منه من الواجبات نحو نفسه ونحو الهيئة الاجتماعية، ويعلمه الانقياد للشرائع والقوانين، وتهيب الحكومة، واحترام الشيخوخة، وعدم الإضرار بالناس وبنفسه؛ لأن نفسه ليست ملكًا له، بل هي قبل كل شيء لله، ثم لأسرته، ثم للوطن، ثم للإنسانية بإجمالها.

ولعمري أنني استجهل أمة مهما بلغت من غايات العلم، والمدنية، والحضارة إذا كانت تستبدل في مدارس شُبانها كلمة الله بلفظة الوطن وحدها؛ لأنها تعد بذلك سبيل انحطاطها، وتشحذ بيدها سلاح انتحارها، فإن فساد العقيدة الدينية في الشعب من أعظم وسائل السقوط ولا مراء.

أجل ولا مراء في ذلك، ولست بمستشهد علي صحة هذا القول بدول مضت وانقضت، وأمم زالت وانقرضت، ولا بشعوب غربية عنا، بل استلفت نظرك إلى العرب أنفسهم، كيف كانت دولتهم شامخة وملكهم ضخمًا، أيام لم يكن فيهم من يهزأ بالدين وتعاليمه؟ فلم يكن فيهم من لعب الفساد بأخلاقه. ولست أنت نفسك بمنكر أن احترام العقائد الدينية والجري علي السنن الشريفة يقي الأخلاق من الفساد، فإذا كنت تقر وتعترف بذلك فأنت مقرًا أيضًا ومعترف بأن تربية الأنا علي قواعد الدين الصحيحة تقيها غوائل السقوط؛ لأن فساد الأخلاق –ولا يختلف في ذلك اثنان– طريق السقوط والانحطاط.

وانظر يا أخي إلى القائمين بالدعوة إلى الفوضى الناشرين لواء العدمية،

فإنك لا تجد فيهم من يعتقد بالله، ويحترم دينًا، أو مذهبًا، بل تجد بينهم كل قاتل أثيم، ولص محتال، وكاذب منافق، وغادر لئيم.

وابحث عن كل منتحر تجد أنه كان فاسد العقيدة الدينية، كافرًا بالله، ورسله، وأنبيائه. بل انظر في خونة الأوطان أنفسهم، تجدهم في الحقيقة ممن لا دين لهم؛ لأن من لا دين له لا وطن له.

وقل لي بحق ما أنت فيه من الشباب ورغد العيش، كيف تحتمل المرض والفقر -إذا لا سمح الله- انقلبت بك الأيام، ودار بك دولاب الدهر، فعكس ما أنت فيه من الصحة واليسر، وكنت قد شببت علي الهزأ بالقواعد الدينية.

وكيف ترضى بما صرت إليه بدلا مما كنت فيه وأنت لا تعرف الخضوع لتقادير الأيام المسخرة بإرادة من الله، بل كيف تجرد امرءًا من الدين، وتطلب منه إذا ضاقت حالة أن يكون عفيفًا صادقًا، طاهر اليد، نقي الذمة، قائمًا بما هو فيه، راضيًا بما قسم له؟. وكيف تجرد امرأة من الدين وتطالبها بأن تعف عن كل حرام، وتتنزه عن كل منكر، وألا تهتم لغير تدبير منزلك وتربية أولادك؟

تلك أسئلة لا جواب عليها غير السكوت، فالصمت في بعض الأحيان أفصح جواب. ولعمري أن الدين أعظم سلوى للجنس البشري في ساعات ضنكة، ورزاياه وليالي ضيقة وبلايا، فلا نعلم إذًا علي زيادة شقائه بحرمانه هذه التعزية العظمى، والتسلية السامية.

ولست أريد بذلك كله أنه ينبغي لنا أن نربي أولادنا تربية دينية محضة تحملهم علي التشبث بأذيال التعصب الذميم الذي كان له في الشرق أقبح أثر، حتى أنه كان من جملة أسباب تقهقره وانحطاطه. ولا أريد القول بأنه يجب علينا أن نعلم أبناءنا كره كل دين غير ديننا، وبغض كل رجل من غير مذهبنا. كلا،

فلو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة، وإنما لكلٍ دينه، والناس أخوان مهما اختلفت مذاهبهم، والأديان مجمعة كلها علي تعليم حب الغريب واحترام ما له من كل جنس ونوعٍ.

فيا أيها المسلم كن مسلمًا حقيقيا يأتمر بالقرآن الشريف، فإذا كنته فإنك لا تبغض المسيحي، ولا تكره الإسرائيلي. ويا أيها المسيحي أعمل بوصايا أنجيلك الطاهر، فإذا عملت فأنك لا تضر إسرائيليا، ولا تؤذي مسلما. ويا أيها الإسرائيلي سر علي ما رسمته لك التوراة، فإذا سرت علي هذا القاموس الكريم فإنك لا تقهر مسلما، ولا تناصب مسيحيا. ويا أيها الشرقيون عامة أرضعوا أبناءكم مبادئ الدين الصحيحة، وتعاليمه الحقة منزهة عن الخرافات التي يمحها العقل، مجردة عن البدع التي ما أنزل الله بها من سلطان، وانزعوا من قلوبهم عاطفة التعصب الذميم الذي يوجده الجهل، وعدم فهم تعاليم الدين علي حقيقتها؛ ليحل الوفاق والائتلاف محل الخلاف والتنافر اللذين نحن فيهما، وأنا الكفيل بانقلاب وجه التربية التي نتلقاها، وبالتالي بتغيير الخطة التي نتبعها. أنا الكفيل لكم متى أرضتم أبناءكم لبان التربية علي حقيقة وجوهها المادي، والأدبي، والعقلي، والديني أن الشرق يعود إلى ما كان فيه من التقدم الباهر، والنجاح الزاهر، فيصبح والغرب صنوين في العظمة والجاه، فرقدين في القوة والغنى، وليس ذلك علي الله بمستنكر.